صناعة المصطلح عند الفارابي

د.نعمان بوقرة (*)

توطئة

شغلت قضية المصطلح الفني اهتمام المفكرين المسلمين في التراث العربي بزخمه وامتداده، وكان لهذا الاهتمام أسباب موضوعية وخصوصيات مرجعية، والظاهر أن الجهود العربية، في خدمة المصطلحية العربية التراثية، تشكل في الحقيقة معالم نظرية استغرق بناؤها زمناً طويلاً، وهذا ما يجعلنا نَسِمُها بكونها نظرية في علم المصطلح. وربما كان المتكلمون أول من اعتنى بهذا المجال المعرفي الذي استرعى انتباه الجاحظ (ت 255 هـ)ويبدو أن من أسباب نضج هذه النظرية الاتصال بالثقافات الأجنبية اليونانية، والفارسية، والهندية، والسريانية، وهذا ما دفع بالمفكرين، على اختلاف تخصصاتهم، إلى الاهتمام بمساءلة اللسان، سابرين أغواره، وباذلين أقصى الجهد في ميدان الوضع، والقياس اللغوي، والاشتقاق، والنحت، والتوليد، والتعريب، والمجاز. ولعلنا، من خلال هذه الدراسة التأصيلية، نسهم في التعريف بجهود أحد أبرز العلماء المسلمين الذين طوعوا اللغة لخدمة المعرفة النقلية والعقلية، في إطار جهد معجميّ مثله الفارابيّ بكتاباته المتميزة.

أ- الفارابي، سيرته وجهوده اللسانية

عرف المهتمون بالفكر الإسلاميّ و الثقافة العربية أبا نصر الفارابيّ، من خلال جهوده المتنوعة في الفلسفة الإلهية و المنطق وكتاباته السياسية والأخلاقية، لكنهم لم يفحصوا آراءه القيمة في ميدان اللسانيات، بشكل مستفيض، خصوصاً عنايته بالصنعة المعجمية [1]، فقد بذل فيها الجهد المنظم، من أجل تطويع اللسان لسائر الأغراض المعرفية، وجعل اللغة وسيلة نفعية ونوعية لحصول ملكات العلوم النقلية والخطابية والبرهانية، ولعل عنايته بالألفاظ التقنية، المستعملة بوجه خاص في المنطق والفلسفة والعلوم اللغوية، شاهد صدق على ذلك الفهم المتكامل لقضايا اللسان وأصول مفرداته واشتقاقاته، والوظيفة التداولية للظاهرة المجازية فيه، وكذا إيقاع تلك الصيغ على مدلولاتها على نحو معقول و بصورة تدفع اللبس على المتعلمين، ذلك أن الغرض الأساس من الصنعة المعجمية هو تيسير تعليم المبتدئين أصول المعارف. وفي ضوء هذا السياق عُني الفارابيّ بتتبع حياة الألفاظ، مستدعياً التطور الذي طرأ عليها في الألسن المجاورة إلى أن استقرت على حالة واحدة مثلتها الصياغة العربية، ذلك أن تكون اللسان

(*) جامعة عنابة- الجزائر

كنظام يسوغ هذه النظرة التاريخية. ربما يكون من اللازم التعريف بشخصية الفارابيّ، ذلك أن أغلب المراجع القديمة لم تحقق في شخصيته، بما فيه الكفاية، إلى درجة تتداخل فيها المعلومات حول نسبه وأصله، وتتناقض الروايات أحياناً أخرى، إلا أننا نعرف أنه كان ناطوراً في أحد البساتين ببغداد مما يعكس انكسار حاله وبساطة عيشه[2] والفارابيّ، فيما تذهب إليه كتب التراجم المعتمدة، هو أبو نصر محمد بن أوزلغ بن طرخان، ولد بفاراب أو فارياب حوالي 870 م الموافق ل 252 هـ، و لم تنقل المراجع شيئاً كثيراً عن نشأته وسنين حياته الأولى، والظاهر أنه تعلم بمسقط رأسه[3]، ثم انتقل إلى بغداد، وهناك أخذ المنطق عن أبي بشر متّى بن يونس والتقى بالأصوليّ اللغويّ ابن السراج[4]، وقد كانت حينها قبلة للعلماء في مختلف العلوم وبخاصة العلوم العقلية والمنطقية، إذ سهر الخلفاء أنفسهم على ترجمة أعمال إيساغوجي وجالينوس وأرسطو وأفلاطون والرواقيين والسوفسطائية، ولعلهم أدركوا فائدة هذه العلوم في الذود عن حمى العقيدة الإسلامية، ثم ارتحل الفارابيّ إلى دمشق وأقام بحلب، في بلاط سيف الدولة الحمدانيّ، إلى أن وافاه الأجل سنة 399 هـ الموافق ل 950 م، وكان حينها في صحبة الأمير الحمدانيّ في دمشق والتي بها دفن وصلى عليه خلق كبير من علية القوم وخاصتهم[5].

لقد كان الفارابيّ شخصية زاهدة واسعة المعارف، إذ جمع إلى المعرفة العقلية فنوناً متعددة مثل الموسيقى والحساب والأدب واللغات[6]، وكان ضليعاً في علم العربية ناظماً جيداً، له أدعية على اصطلاح الحكماء[7] وإلى ذلك درس الطب والفلك والإلهيات والفقه.... إلخ، وربما يكون من نافلة القول التذكير بأنه ترك ذخيرة علمية مهمة تأست عليها كثير من التصورات النظرية العربية في مجالات شتى، ناهيك عن تأثيره في غيره، في منهجه وآرائه، من عرب وعجم، إلى درجة أن ما كتب عنه في الثقافات الأخرى يفوق بكثير ما كتب عنه باللغة العربية، ويمكن في هذا السياق أن يشار إلى أهم هذه الأمهات:

- إحصاء العلوم، نشر أحمد أمين، مصر، وترجمه بالنثيا إلى الإسبانية.
- معاني العقل، وهي مترجمة إلى أكثر من لغة.
- فصوص الحكم، مترجم إلى الألمانية-مشكوك في نسبته له-
- عيون المسائل.
- آراء أهل المدينة الفاضلة.
- السياسة المدنية، لها ترجمة بالعبرية[8].
- كتاب في الخطابة، وقد ذكر بأنه يقع في 20 جزءاً.
- التعليقات، مطبعة حيدر آباد 1933م.
- الألفاظ المستعملة في المنطق، حققه محسن مهدي،1986.
- كتاب العبارة في المنطق.
- كتاب الخطابة في المنطق.[9]

أما الشروح: فقد شرح أرسطو في السماع الطبيعيّ والعبارة والخطابة والمقولات والمغالطة والجدل والقياس والأخلاق والآثار العلوية، كما شرح، لبطليموس

الماجسطيّ ولأسكندر الأفروديسيّ، مقالة في النفس[10].

ب – المصطلحات الفنية في كتاب إحصاء العلوم

تناول الفارابيّ جملة من المصطلحات العلمية التي ينتج عن تفسيرها فهم كثير من الحدود العلمية وطرائق البحث في العلوم، وهي محاولة جادة لإنارة الطريق أمام المتعلمين الدارسين للعلوم النظرية والتطبيقية، وربما يكون من المفيد أن يشار إلى بعضها:

- علم الألفاظ المفردة.
- علم الألفاظ المركبة.
- علم قوانين الألفاظ المفردة.
- علم قوانين الألفاظ المركبة.
- علم الشعر
- علم التعاليم ويتضمن تحديد ما يلي :

علم العدد	علم الهندسة
علم المناظر	علم النجوم
علم الموسيقى	علم الأثقال
علم الحيل	
العلم الطبيعي	الأستقسات
الجسم المفرد	الجسم المركب
الكون	الفساد
العلم المدنيّ	الفقه
الكلام	التصور
التصديق	الممكن
ا لواجب	الفيض
النفس	الداء السبعيّ
الخشوع	البهيمية
العقل المنفعل	العقل الفعال

الحقيقة أن الفارابيّ، في كتابه هذا، سعى إلى إحصاء الألفاظ الفنية من حيث هي علامات واقعة على العلوم، بل يمكن عد هذا الجهد، على اختصاره، قاعدة بيانات لتأسيس معجم تعريفيّ، كالذي قدمه التهانويّ، والشريف الجرجانيّ والقنوجيّ، والخوارزميّ هذا الأخير الذي تأثر به أيما تأثر، [11] والرازيّ. هذا وقد أشاد بقيمته التعريفية القاضي صاعد بقوله "ثم له كتاب شريف في إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها لم يسبق إليه، ولا ذهب أحد مذهبه فيه، ولا يستغني طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به وتقديم النظر فيه "[12].

إن مايجب التأكيد عليه أن الفارابيّ، في مساردة للمصطلح، قصد خدمة اللسان، ذلك أنه يخاطب المثقفين و الأدباء فهم أحوج الناس إلى معرفة فنون العلوم والآداب، أما طريق ضبط هذه المصطلحات فهي، كما أشَرنا سلفاً، قائمة على:

ج–الاختراع و التعريب [13]: بالرغم من أنه لم يترك مؤلفاً مباشراً في الحدود والرسوم، إلا أن تحديداته وردت متناثرة في مؤلفات مهمة، مثل الألفاظ المستعملة في المنطق، وكتاب الحروف والثمرة المرضية في الرسالات الفارابية، وكذا رسائله، بخاصة الرسالة رقم–11 –[14].

لقد مثل الفارابيّ مرحلة نشوء المصطلح الفنيّ والفلسفيّ، بالإستناد إلى التعريب والترجمة ثم التعريف، مع محاولة نقل الألفاظ من معناها العام إلى المعنى الخاص، وقد كان هذا الجهد تعبيراً عن نضج اللغة الفلسفية في الترجمات اليونانية إلى العربية، وبخاصة كتب أرسطو. ثم تبعه جابر بن حيان، والخوارزميّ، وابن سينا [15]، والغزاليّ، وهذان الأخيران مثّلا مرحلة استقرار المصطلح العلميّ وشيوعه في المحافل المتخصصة .[16]

إن محاولة الاقتراب من النص الفارابيّ، في أبعاده التعريفية و الدلالية و تفكيك بنيته الفلسفية ذات التركيب اللسانيّ، يفرض على الدارس اليوم بذل الكثير من الجهد من أجل استشراف عوالم دلالية جديدة يزخر بها النص القديم، خصوصاً وأن هذا النص تحمل أعباء عرضه نظرية لسانية تصف انفتاح اللسان على مفاهيم ومعان وقواعد مختلفة باختلاف المعارف التي عرفتها الحضارة العربية الإسلامية، والتي تشبع بها كأحد أقطاب الفكر الإسلاميّ فهو، كما وصفه مصطفى عبد الرازق وعاطف العراقيّ، فيلسوف العرب ومفكرهم ومؤسس فلسفتهم العربية، في ضوء إعادة ترتيب لمعجمها الخاص المؤسس على خصائص العربية في التعرف والبناء والاشتقاق والمجاز، إذ من المتعارف عليه، بين كثير من الدارسين، أن أكثر النصوص وأشهرها في مجال المصطلحية تلك التي قدمها الفلاسفة.

إن المنهجية الفارابية في التطبيق المعجميّ، قائمة على توضيح المفاهيم المفردة، بالاعتماد على الألفاظ المفردة، أو كما عبر بكونها أجناس الأشياء البسيطة التي يقع الكلام عليها، وبالتالي الحديث على كل الصنائع المنطقية، بالاعتماد على إبراز الفروق الدلالية بين الأسماء المفردة الدالة على أجناس المعقولات المفردة، مما يمكّن لاَحقاً من فحص الفروق بين الدلالة اللسانية العامة و الدلالة التقنية الخاصة. إن جهود الفارابيّ لم تنطلق من فراغ، بل كانت مؤسسة على خلفيات معرفية منها اللسانيّ ومنها الفلسفيّ ومنها المنهجيّ، وبالتالي سنجده يستنير بكل ما أنجزه الآخرون كالكنديّ، من الفلاسفة وعلماء صناعة المعجمات والنحويين، وفي هذا السياق تنزل تفكيره اللسانيّ في أصل الألسن وتكونها وتطورها، وتغير الألفاظ على المستوى الدلاليّ والتداوليّ، بخاصة الألفاظ التقنية التي يمكن عدها لغات خاصة تؤدي وظيفة اللغة الشارحة، وهذا ما مكن من بناء نواة لقاموس متخصص، يستمد منظومته المعرفية من الفلسفة والمنطق وبناءه التنظيميّ من اللسان العربيّ.[17]

لقد قارب الفارابيّ مسألة من أهم المسائل التي أثارها الفكر الإسلاميّ وهي التسمية وطبيعة علاقة الاسم بمسماه، وقد امتد النقاش في هذه القضية إلى حقول معرفية أخرى،[18] وأخذت المسألة بعداً غيبياً، وسيسمح هذا النقاش بفحص كل التصورات المنهجية التي تقف كمعادل موضوعيّ لعلاقة المصطلح بالوظيفة النفعية للسان في حياة الجماعات، وتكشف عن الاجتهاد العربيّ في مجال تقنين المصطلحات العلمية المتخصصة، وكذا الاستنجاد ببعض الأسس المنهجية في وضع المصطلحية وضبطها، وفق سنن التطور اللسانيّ وخصائص العربية، وحاجة المجتمع بعامة والفئات المتخصصة. لقد وضع الفارابيّ، على حد تعبير ماسينيون، القواعد الأساسية للمصطلح الفنيّ، أماقبله فقد أخذوا طرقا أخرى مختلفة [19].

د- تكوين اللسان

ينطلق الفارابيّ من مبدأ مهم، في تفسيره لظاهرة تكوين اللسان، هو مبدأ الخفة بقوله : اللسان يتحرك إلى الأسهل، وهذا المبدأ لا يؤطر لساناً بعينه بل هو ميزة عامة لكل الألسن، وهذا ما يقرب آراءه من التصورات اللسانية الحديثة، في بعدها الشموليّ، ولعل تصوره للنسق اللسانيّ الفنولوجيّ دليل على ذلك، إذ يقول: **"ولأن هذه إذاجعلوها علامات أولاً كانت محددة العدد لم تف بالدلالة على جميع ما يتفق أن يكون في ضمائرهم، فيضطرون إلى تركيب بعضها إلى بعض بموالاة حرف**

حرف، فتحصل في ألفاظ من حرفين أو حروف فيستعملونها علامات أيضاً لأشياء أخرى»[20] ، والمقصود أنه انطلاقاً من عدد محدود من الفونيمات يمكن التأليف بينها لإنتاج عدد كبير من الألفاظ الدالة على معاني الأشياء، والحروف المقصودة-هنا- هي الحروف المعجمة لا الحروف المهملة، وهي التي عناها ابن دريد في كتابه الجمهرة: **فأول ما يحتاج إليه الناظر في هذا الكتاب، ليحيط بعلمه بمبلغ عدد أبنيتهم المستعملة والمهملة، أن يعرف الحروف المعجمة التي هي قطب الكلام بمخارجها و مدارجها وتباعدها وتقاربها، وما يأتلف منها وما لا يأتلف وعلة امتناع ما امتنع من الائتلاف وإمكان ما أمكن ...**[21].

إن عناية الفارابيّ بالحروف المعجمة تتنزل في سياق وصفه لعناصر تكون اللسان، المتمثلة في الوحدات المعجمية الدالة بالوضع والألفاظ الدالة على وجه خاص في المنطق، يقول: **فينشأ من نشأ فيهم على اعتيادهم النطق بحروفهم و ألفاظهم الكائنة منها وأقاويلهم المؤلفة من ألفاظهم من حيث لا يتعدون اعتيادهم ومن غير أن ينطق عن شيء إلا مما تعودوا استعمالها، ويمكن ذلك اعتيادهم لها في أنفسهم و على ألسنتهم حتى لا يعرفوا غيرها، وحتى تحفو ألسنتهم عن كل لفظ سواها وعن كل تشكيل لتلك الألفاظ غيرالتشكيل الذي تمكن فيهم وعن كل ترتيب للأقاويل سوى ما اعتادوها .**[22]

إن تتبعنا لمجمل تصورات الفارابيّ اللسانية يفضي إلى الاعتراف بأن تفكيره ليس وصفاً لأصل مفترض في اللسان ولا رغبة في إعادة تكوين فرضية لبداية تشكله، ولكن سعياً إلى تحليل اللسان بوصفه منظومة عناصر وظيفية مهمته نقل المعرفة وإقامة الاتصال، وربما نزعم قائلين إنها مقاربة للسان من الداخل، ذلك أنها تبحث في طبيعته ووظيفته، وهذا مايجعل من التفكير في المسألة، منذ البدء، موسوماً بسمة ذرعية.

وعلى صعيد الوظيفة التداولية للسان يبين الفارابيّ كيفية شيوع الألفاظ وانتشارها، فيقول :

الناس تتفق على ألفاظ محددة فيما بينهم، معروفة معانيها ودلالاتها لهم، وقد يستعمل الواحد تصويتا أولفظة في الدلالة على شيئ ما عندما يخاطب ذلك فيستعمل السامع ذلك بعينه عندما يخاطب المنشئ، فيحفظ السامع الأول لتلك اللفظة، ويكون السامع الأول قد احتذى بذلك فيقع به فيكونان قد اصطلحا وتواطئا علىتلك اللفظة، فيخاطبان بها غيرهما إلى أن تشيع عند الجماعة، وهكذا تحدث الألفاظ والتصويتات واحدا بعد آخر ممن اتفق من أهل ذلك البلد... ولايزال يدبر أمرهم إلى أن توضع الألفاظ لكل ما يحتاجون إليه في أمورهم فتصبح الألفاظ متداولة بينهم[23].

وربما كان هذا فحصاً لمراحل نشأة المعارف التي تبدأ في النشوء والتكون عندما تقيم جماعة في مسكن واحد وبلد واحد فيفطر أفرادها، بتأثر ظروف المناخ ووسائل العيش، على استخدام التصويت، فتنشأ اللغة، [24] وذلك بأن تستقرالألفاظ على المعاني ثم يعمد المتكلمون إلى النسخ والتجوز والاستعارة في العبارة، فتكثر الألفاظ ويستبدل بعضها ببعض، إلى أن تحدث الصناعات الخطبية ثم الشعرية [25].

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، إذ يعمد أفراد المؤسسة الاجتماعية إلى حفظ هذه الصناعات، المعبر عنها

بألفاظ اللسان بوساطة الكتابة، ثم يظهر علم اللسان تتويجاً لجهود حفظ مفردات اللغة، بعد تحقق سماعها من أفواه الناطقين بها، ثم تأتي مرحلة التقعيد للمنظومة النحوية المشكلة للمنوال اللسانيّ الذي سيرسخ تدريجياً في أذهان المتعلمين، ويحتاج غالباً، في هذا السياق، إلى تحديد المصطلحات التي تكون مفاتيح العلم في العملية التعليمية.

أما المعارف العقلية الاستدلالية، فتمثل المرحلة الثانية في سلم التطور المعرفيّ بتعدد أبعاده اللسانية والمنطقية والاجتماعية والنفسية فتتحدد -عنده- برغبة النفوس إلى معرفة أسباب الأمور المحسوسة في الأرض وفيما يحيط بحياة الإنسان وعلل هذه الأشياء، سالكين مسالك متعددة، أولها الطرق الخطبية ثم الجدلية ثم الرياضية، إلى أن تتحدد في النهاية معالم العلم المدنيّ أو الفلسفة النظرية، وعلى المستوى التعليميّ لها، يوصى باتباع طرق التخيل وضرب المثال لأن ذلك هو الأقرب لأفهام الجماهير وهي مهمة خاصة بالفلاسفة [26].

ومن صور تكون القاموس اللسانيّ، توليد الصور البلاغية التي تسمح بتطور الذخيرة اللسانية، وإغناء المعارف بالألفاظ المرافقة للمعاني اللامتناهية، ولعل النص التالي يوضح صحة ما ذهب إليه. يقول الفارابيّ: "**صار الناس بعد ذلك إلى النسخ والتجوز في العبارة بالألفاظ فعبر بالمعنى بغير اسمه الذي جعل له أولاً وجعل الاسم الذي كان لمعنى ما راتباً له دالاً على ذاته عبارة عن شيء آخر متى كان له به تعلق، ولو كان يسيراً إما لشبه بعيد، وإما بغير ذلك، من غير أن يجعل ذلك راتباً دالاً على ذاته**"[27].

إن هذا التجوز، سيجد له ميداناً خصباً في مجالات متعددة، كالنحو، والبلاغة، والمنطق، والفلسفة، والأدب، والرياضيات، والفلك، والطب، والهندسة... إلخ. ويزيد الفارابيّ القضية بياناً بفحصه للوظيفة التداولية للسان، في علاقتها بالمستوى المعجميّ، مشيراً إلى دور مجموعة من الحكماء العارفين باللسان في إثراء معجمه، وربما أمكن تشبيه دورهم بالمجامع اللغوية المحدثة لهذا الغرض، وتقف وظيفتهم حسبه عند:

ا- تركيب ألفاظ لم تكن مركبة من قبل، وتفعيلها لسانياً بجعلها مرادفة للألفاظ المشهورة.

ب- إحياء المصطلحات المهجورة في الاستعمال وإشاعتها بين المتعلمين. [28]

ج- إهمال الألفاظ التي لم يعد لوجودها مبرر معرفيّ.

د- تخليص اللسان من الألفاظ العسيرة في النطق، واستبدال بها اليسيرة في النطق والسمع.

هـ- ضبط القواعد التي تسمح باكتساب تراكيب فصيحة، منسجمة مع معاني النفس.

و- تعليم النشء، بالاعتماد على النصوص، قراءةً وتسميعاً وحفظاً، حتى يعتاد عليها[29].

إن هذه المؤسسة، بحكمائها وحفظتها ورواتها، تعد صمام الأمان لحفظ توازن المنظومة اللسانية، وتداولية القاموس اللغويّ ونموه، وفق متطلبات الحياة، وهذا ما عبرت عنه الجملة التالية:... والغابر يحفظ ما أنجزه الماضي... [30]. وبالتالي، سيكون هناك تواصل بين الماضي والحاضر والمستقبل، في سياق تشكيل اللسان العام واللغات النوعية الخاصة بالعلوم، ولعل هذه الفكرة تشبه في مضمونها ما قرره الأزهريّ (ت970 هـ) وهو معاصر للفارابي، في إشارته لدور المعجميّ في حفظ اللسان،

وصيانة اللسان، بالاعتماد على السماع والمشاهدة [31].

ولا بد في مبدأ السماع، الذي يعول عليه في تحصيل الذخيرة اللسانية، من الاعتماد على ما يمكن تسميتهم بالمتكلمين المستمعين المثاليين، أو العرب الفصحاء الذين لايختلف في سلامة ألسنتهم من العجمة، وهم الذين اكتسبوا، بفعل عاداتهم اللسانية التي يمارسونها دون انقطاع، قدرة وكفاءة تحميهم من اكتساب ألفاظ أخرى غير التي تتألف من حروفهم الخاصة، بل المطلوب أن تطلب هذه الألفاظ ممن يعسر عليهم تخير حروف أخرى، ونطقها غير التي في لسانهم، وهي المثالية المطلوبة [32].

وعليه يمكن أن يرافق تكوين القاموس الاهتمام بالشروط الضرورية التي يجب تحققها في المخبر اللسانيّ والذي يجب أن يكون منتمياً إلى سكان أعماق الصحراء. هذا، وقد حدد الفارابيّ البعد الجغرافيّ الذي يؤطر جملة القبائل المحتج بفصاحتهم وعليها التُّكْلان، في الغريب والإعراب والتصريف.

وعلى صعيد ترتيب نشوء المعارف زمنياً، و تنزل العلاقة الرابطة بين الدينيّ والفلسفيّ، و ضمن ارتقاء المعرفة من النمط الخطابيّ إلى النمط الجدليّ، يفحص الفارابيّ أثر الدين والفلسفة في تطوير القاموس اللسانيّ. فبالنسبة للدين، يمكن معاينة:

1 -تدخله في ابتكار ألفاظ جديدة أو نقلها من دلالاتها الوضعية إلى أخرى. [33]

2- أما الفلسفة، فحالها لايختلف عن حال الدين، وهذا ما أفصح عنه في قوله : ..."وإن حدث فيهم الجدل أو السفسطة واحتاج أهلها أن ينطقوا عن معان استنبطوها لم تكن لها عندهم أسماء، إذ لم تكن معلومة عندهم قبل ذلك، فإما اخترعوا لها ألفاظاً من حروفهم، وإما نقلوا إليها أسماء أقرب الأشياء إليها. [34] ويذهب الفارابيّ بعيداً على صعيد البعد المعرفيّ في عملية ترجمتها من حيث تأكيده على ضرورة أن يعرف المترجم اللغتين، يقول : فإنّ على أهلها أن ينظروا إلى الألفاظ التي كانت الأمة الأولى تعبر بها عن معاني الفلسفة، ويعرفوا عن أي معنى من المعاني المشتركة معرفتها عن الأمتين هي منقولة عن الأمة الأولى فإذا عرفوها أخذوا من ألفاظ أمتهم الألفاظ التي كانوا يعبرون بها عن تلك المعاني العامية بأعيانها فيجعلوها أسماء تلك المعاني [35]. كما يرشد الفارابيّ، في حال غياب دلالات في لسان ما، أن تخترع ألفاظ من حروف اللغة، فإن تعسَّر ذلك، يمكن الالتجاء إلى التشريك في المعاني، وإما يعمد إلى تغيير طفيف يمس كيفية نطق اللفظة، في حال وضعها الأول، مما يسهل على المتكلم استخدامها في وضعها الثاني [36] وهذا النوع من التكييف يحيل إلى تبني المصطلحات كما هي، تعبيراً ومفهوماً، وربما كانت هذه الفكرة امتداداً للفحص اللسانيّ الذي قام به الخليل بن أحمد في أبنية الكلام العربيّ، فقد نص في كتابه العين على أن ورود الكلمة الرباعية أو الخماسية، معراة من أحرف الذلاقة أو الأحرف الشفوية، دليل على خضوعها للتعريب، أو أنها ليست من أصل عربيّ، فقد تكون فارسية أوسريانية أو رومية [37]، وقد ضرب الفارابيّ نفسه أمثلة على الاستفادة من الاشتقاق في ابتكار الألفاظ ذات الدلالة الخاصة مثل: الإنسانية والرجولة والبنائية، مما يجري مجرى المصادر والمصادر الصناعية، وتذهب بعض الدراسات إلى أنه أول من استعمل المصدر الصناعيّ في توليد الألفاظ مثل : العالمية والإنسانية والرهبانية، حتى توسع في ذلك فصار من مادة

اللسان، ممهداً إلى ظهور جم غفير من المصطلحات الفنية.

هـ- التسمية

إن أصل التسمية، نابع عن اضطرار الإنسان للتعرف على كل ما يحتاجه مما يرتبط بأعماله في الحياة، وعلاقته بالآخرين وكذا ما تقع عليه حواسه، وهذا ما يسوغ تعالق التسمية بالمعرفة الحسية، من حيث هي أساس المعرفة العامة أو العلمية، إن صح هذا الوصف.

وعلى صعيد آخر، يقرر الفارابيّ ترابط الألفاظ بالمعاني على نسق منطقيّ مرتب ينفي سمة الاعتباطية عن التسمية، وربما نفهم ذلك من قوله: وهكذا يطلب النظام في الألفاظ تحرياً لأن تكون العبارة عن المعاني بألفاظ شبيهة بتلك المعاني، وهذا ما يضفي على التسمية السمة المنطقية بهدف تمييز ما هو ثانويّ في اللسان عما هو أساسيّ، ثم إعادة بنائه استدلالياً، تحقيقاً للدقة ورفعاً للبس.

و- اللسان الخاص ومنظومات المعارف

قد يكون من الممكن بعد عرض عناية الفارابيّ بتكون اللسان كأداة منظمة للتبليغ تفحص تحليله في ميدان اللسان الخاص أو ما يصطلح عليه بلغات العلوم انطلاقاً من مسلمة تعبر عن اختصاص كل صناعة بقاموس لفظيّ تقنيّ تلعب الألفاظ فيه دور الدوال المحيلة على مدلولات معينة، يقول في كتابه الألفاظ: .. **وينبغي أن نعلم أن أصناف الألفاظ، التي تشتمل عليها صناعة النحو، قد يوجد منها ما يستعمله الجمهور على معنى، ويستعمل أصحاب العلوم ذلك اللفظ بعينه على معنى آخر. وصناعة النحو تنظر في أصناف الألفاظ بحسب دلالاتها المشهورة عند الجمهور، لا بحسب دلالاتها عند أصحاب العلوم، ولذلك إنما يعرف أصحاب النحو من دلالات هذه الألفاظ دلالاتها بحسب ما عند الجمهور، لا بحسب ما عند أهل العلوم.** قريب منه في الحروف قوله: .. ومما ينبغي أن تعلمه أن لفظاً، على شكل ما وبنية ما، يكون دالاً بنفسه على شيء ما بمعنى أو على معنى بحال ما، ثم يجعل ذلك اللفظ بعينه دالاً على معنى آخر، مجرد عن تلك الحال فتكون بنيته بنية مشتق يدل في شيئ ما على ما تدل عليه سائر المشتقات، ويستعمل بتلك البنية بعينها في الدلالة على معنى آخر، مجرد عن كل ما تدل عليه سائر المشتقات [38]. وهذا يقود حتماً إلى الإقرار بأن الألفاظ المستعملة في العلوم يمكنها أن تكون ذات معان ليست من معاني اللغة اليومية المتداولة، وهذا ما دفع بالعلوم، عبر التاريخ، إلى أن تتخذ لها معاجم خاصة تكون ألفاظها مداخل للمفاهيم.

ويواجهنا الفارابيّ، في عملية إعداد القاموس التقنيّ، بقاعدة جوهرية إذا كان متعلقاً بمعرفة منقولة من فكر لآخر، عن طريق التعريب والترجمة ، وهي ضرورة الانتباه لمعقولية اللفظ في علاقته بالمعنى، ذلك أن الألسن تقطع العالم كحقائق بمضامين مختلفة، وبالتالي قد يحدث اختلاف في المفاهيم وهذا ستكون له تبعات وخيمة في وضع مقابله باللسان الثاني، كما سيقع المتعلم ضحية لهذا اللبس، لقد وجدنا لهذا التصور النظريّ تمثلاً تطبيقياً في كتاب التقريب لفن المنطق، لابن حزم الأندلسيّ، الذي استشعر، على المستوى البيداغوجيّ، إشكالية وضع المصطلح وتعريبه وترجمته ثم تعليمه والاستشهاد له بالأمثلة العامية التي تمثل عنده اللسان العام الذي تحدث عنه الفارابيّ [39].

ز- مشكلات الترجمة

ثمة ملاحظة تجب الإشارة إليها في سياق عناية

العرب بالصناعة المعجمية تتمثل في وقوفهم عند إشكالية الترجمة، إذ إن اللغة قد تأثرت بالمراحل التي مرت بها الترجمة، فالكلمات المنقولة إلى العربية مرت برحلة طويلة، فمن اليونانية إلى السريانية، ثم إلى العربية، وأحياناً من الهندية، وكل ذلك قد أخل بالمعنى الحقيقيّ، إذ من الأكيد أن اللفظ إذا ابتعد عن موطنه وسياقه تطرأ عليه معان جديدة وتغيرات تمس بنيته الشكلية، والأمثلة على ذلك كثيرة، وهذا سيحمل المترجم طاقة كبيرة ليستمكن من مقاربة المعنى الحقيقيّ وتوفير اللفظ المناسب[40] الذي سيسمح للسامع بتحديد المعنى المراد في موطنه الجديد، بعد المعنى الذي كان له في موطنه القديم. لقد أدت هذه القضية إلى طرح الإشكاليات التالية :

- صعوبة فهم معنى اللفظة المستعارة لدى القارئ العربي، أوصعوبة تحديد المصطلح اليونانيّ في حقل من الحقول المعرفية، واقتضى هذا اللجوء إلى التعريب مثل:

الأنالوجيا	القياس	Analogie
ناموس	قانون	Namus
كاتيغورياس	المقولات	Kateegrias

- غياب أدنى القواعد الضابطة لعملية انتقاء الألفاظ الدالة على المعاني الأصلية.

- اللجوء إلى تحريف المعاني الأصلية، طلباً لإحداث التوافق المفهوميّ في الذهنية الإسلامية والعربية [41].

- غلبة النظرة الحسة للقضايا على التصور التجريديّ، مما يطرح مشكلة مقابلة المعاني الميتافيزيقية على بساط النقاش، وهذا ينم عن اختلاف الألسن في تقطيع العالم الخارجيّ، وبالتالي التحكم في نظرة المجتمع للكون [42]. والحق أن لهذه الترجمات المتعددة دوراً فعالاً في صياغة العقل العربيّ وتوجيهه نحو التفكير في المسائل الكونية، وجعله أكثر فعالية وإنتاجية.

وفي هذا السياق، أوصى الفارابيّ بضرورة الاعتماد على قوانين تشترك فيها الأمم، ولا ينظر في شيء مما يخص ألفاظ أمة ما، بل يؤخذ من ذلك عند أهل العلم بذلك اللسان[43].

ح- الممارسة المعجمية عند الفارابيّ

تترجم مؤلفات الفارابيّ في مجملها وعيه ووعي معاصريه، من نحويين وفلاسفة ومتكلمين، بتاريخ تكون اللسان والعوامل التي ساعدت على تكون القاموس اللسانيّ للمعارف النقلية والعقلية بوجه عام، سواء أتعلق الأمر بالثقافة العربية أم بالثقافة الوافدة، مما يعطي بعداً شمولياً للرؤية المنهجية، ويسمح لها بأن تقدم نفسها كأساس لنظرية أصيلة في المعجمية العربية، وربما كان من اللازم أن يعرض إلى كيفية تمثل الفارابيّ نفسه للمقترحات النظرية التي قدمها، ورغم عدم قدرتنا على إجراء جرد كامل للألفاظ الدالة على المفاهيم الفنية المتخصصة، والتي تمثل جانباً من الذخيرة اللسانية الحية في الاستعمال الفلسفيّ والأدبيّ والمنطقيّ، إلا أننا نشير إلى بعض الملاحظات الجزئية ذات الخصوصية اللسانية والتعليمية، ذلك أن تحديد المصطلحات وضبط قوائمها ييسر للدارس سبيل التحصيل العلميّ[44] ، ومن أمثلة ذلك الألفاظ التالية: أنالوطيقا، ريطوريقا، سوفسطيقا، طوبيقا، إيساغوجيّ، الذات، الجوهر، المحاكاة، العرض... وللتوسع في هذه المسألة يمكن أن نأخذ، من كتابه الحروف، لفظة العرض لنبين دلالتها.

يذكر الفارابيّ أن لها دلالتين: أولى لسانية، وهي

كل ما كان نافعاً في الدنيا، كما يقال على كل حادث سريع الزوال، أما الثانية فمنطقية، وهي الصفة المتعلقة بأمرما لم يكن محمولاً على الموضوع، ولم يكن المحمول داخلاً في ماهية الموضوع أصلا [45].

الجوهر

ماقيل عن العرض يقال عن الجوهر، فهذا اللفظ يدل على:

- المعدن النفيس.
- الجانب المعنويّ والأخلاقيّ.
- الماهية أو الصورة.

المحاكاة

تدل هذه اللفظة على أحد معنيين هما: التشبيه والظلال المنعكسة في المرآة [46].

الفلسفة

اسم الفلسفة يونانيّ، وهو دخيل في العربية، وهو على مذهب لسانهم فيلسوفاً ومعناه أثار الحكمة، وهو مركب من فيلا، ومن سوفيا، ففيلا الإيثار، وسوفيا: الحكمة والفيلسوف على مذهب لسانهم فيلوسوفوس [47].

إن تحديدات الفارابيّ، الاصطلاحية تهدف إلى ترسيخها في اللسان والاستعمال، ولعله كان يرى ضرورة نقل العقل العربيّ من مرحلة التجريد الأولى التي توضع فيها الألفاظ، بهدف إقامة التواصل، إلى مرحلة ثانية أكثر جاهزية في الكشف عن العلاقة بين الألفاظ والأقاويل من الناحية المنطقية[48].

القول:

القول مركب من ألفاظ، والنطق والتكلم هو استعماله تلك الألفاظ والأقاويل وإظهارها باللسان والتصويت، ملتمساً الدلالة على ما في ضميره [49].

الملكة:

والثلث القوة النفسانية المفطورة في الإنسان التي بها يميز التمييز الخاص بالإنسان دون ما سواه من الحيوان، وهي التي يحصل الإنسان بها المعقولات والعلوم والصنائع، وبها تكون الرؤية، وبها يميز بين الجميل والقبيح من الأفعال، وهي توجد لكل إنسان، حتى في الأطفال، لكنها نزرة لم تبلغ بعد أن تفعل فعلها.[50]

الخاتمة

إن البحث الفلسفيّ العربيّ القديم، الذي تشكل بفعل مجموعة من العوامل، كان له الفضل الكبير في إثراء الذخيرة اللغوية للعربية وتقديم بدائل موضوعية تسهم في حل إشكالية المصطلح الفنيّ الذي ظل هاجس الدارسين على اختلاف تخصصاتهم، قديماً وحديثاً، في الشرق أو في الغرب، ولعلنا نكون الأكثر تضرراً، في مجال ضبط المصطلح وتوحيده بل وضبط المنهجية ذاتها والتي تسمح لنا بفحص جميع الأدوات التي تمكن من إغناء اللسان العربيّ وجعله أكثر فعالية في الحراك الثقافيّ والعلميّ والاقتصاديّ، وربما نكاد نجزم بأن أهم سبب في ظهور إشكالية المصطلحات هو عدم تحكمنا في التقدم العلميّ بمختلف مستوياته، والدليل على ذلك أن القدماء لم يعانوا من هذه الإشكالية إلا الشيء القليل، في بداية تشكل دولتهم، لنأتي في النهاية فنقول بأن الأزمة ليست في اللسان كما أنها ليست في كيفية وضع المصطلح بل في الإنسان العربيّ ذاته، وطريقة تفكيره و علاقته بالآخر، في ظل المتغيرات الحضارية الراهنة وما تطرحه من إشكالات على الصعيد المعرفيّ والمفهوميّ والمنهجيّ.

المصادر والمراجع

الفارابيّ ، (أبو نصر ت 339هـ)

1- إحصاء العلوم، تحقيق عثمان أمين، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ط 03، 1968.

2- الألفاظ المستعملة في المنطق، تحقيق محسن مهدي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت،1968.

3- الحروف، تحقيق محسن مهدي، بيروت،1970.

4- رسالة في قوانين صناعة الشعر، ضمن كتاب فن الشعر لعبد الرحمن بدوي.

ابن أبي أصيبعة (موفق الدين بن يوسف ت 668 هـ)

5- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، دت.

الأزهري (محمد بن أحمد بن الأزهر)

6- تهذيب اللغة، تحقيق محمد عبد السلام هارون، القاهرة، 1964

جوزيف شريم

7- الفارابيّ، أعلام الفكر العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، ط1،1960.

جيرار جيهامي

8- الإشكالية اللغوية في الفلسفة العربية، دار الشرق، بيروت،1994.

روزنتال، (فرانز)

9- مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ترجمة أنيس، فريحة،1961.

ابن دريد،(محمد بن الحسن)

10- جمهرة الكلام، ط الهند.

الذهبي (عبد الحي بن أحمد الدمشقي ت 1089 هـ)

11- سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقوسي، دار الرسالة، بيروت، ط 3 ،1413 هـ.

زينب عفيفي

12- فلسفة اللغة عند الفارابيّ، تصدير عاطف العراقي، دار قباء، القاهرة،1997.

حاجي خليفة (أحمد بن مصطفى ت 1067)

13- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر،1982.

ابن حزم (أبو محمد علي بن سعيد ت456 هـ)

14- التقريب لحد المنطق المدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، تحقيق إحسان عباس، منشورات مكتبة الحياة، بيروت،1959.

ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين ت 681 هـ)

15- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دارالثقافة، بيروت، ط 02،1968.

الخليل (ابن أحمد الفراهيدي)

16- العين، تحقيق عبد الله درويش، بغداد،1967.

صاعد الأندلسي

17- طبقات الأمم، نشر لويس شيخو،1912.

عبد الأمير الأعشم

18- المصطلح الفلسفي عند العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط 02، 1989.

عبد السلام بن عبد العال

19- الفلسفة السياسية عند الفارابيّ، دار الطليعة، بيروت، ط 2.

علي عبد الواحد وافي

20- علم اللغة، مكتبة النهضة، القاهرة، ط04،1947.

القنوجي (صديق بن حسن ت 1307 هـ)

21- أبجد العلوم الشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، تحقيق عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية ، بيروت، 1978.

الكاتبي، نجم الدين

22- الشمسية في القواعد المنطقية، تحقيق مهدي فضل الله، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1998.

لويس ماسينيون

23- محاضرات في تاريخ الاصطلاحات الفلسفية العربية، ترجمة زينب الخضري، المعهد العلمي للآثار الشرقية، القاهرة، 1913.

ابن، النديم (محمد بن إسحاق ت 438 هـ)

24- الفهرست، تحقيق مصطفى الشويمي، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر، 1985.

ياقوت الحموي (ياقوت بن عبد الله ت 626 هـ)

25- معجم البلدان، مطبعة الخانجي، مصر 1906.

26-TROUBETEZKOY, Principes de phonologie, tra Cantinean, Paris, p 54.

الهوامش

1- زينب عفيفي، فلسفة اللغة عند الفارابيّ، ص 8، وانظر حيرار جيهامي، الإشكالية اللغوية في الفلسفة العربية، ص 101،

2- عيون الأنباء، 1 603.

3- جوزيف شريم، الفارابيّ، أعلام الفكر العربي ص16 و 17.

4- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء،606/1.

5- ابن خلكان، وفيات الأعيان،154/5 وياقوت الحموي معجم البلدان،145/05. وابن النديم، الفهرست ص 368. وصاعد، طبقات الأمم، ص 53.

6- القنوجي، أبجد العلوم،104/2.

7- الذهبي، سير أعلام النبلاء،416/15.

8- في أهمية الفلسفة السياسية عند الفارابيّ، انظر عبد السلام بن عبد العال، الفلسفة السياسية عند الفارابيّ.

9- الكاتبي، نجم الدين القزويني، الشمسية في القواعد المنطقية، ص 12.

10- حاجي خليفة ، كشف الظنون،1 /682.

11-عبد الأمير الأعسم، أبو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات، بيروت ط 02، 1983، ص 259.

12- صاعد الأندلسي، طبقات، الأمم، ص 62.

13- عبد الأمير الأعسم، المصطلح الفلسفي، ص 61.

14- طبعت الرسالة الأولى في ديتريصي سنة 1890 بليدن، والثانية بحيدر آباد، سنة 1926.

15- انظر تأثير مدرسة الفارابي في أعمال ابن سينا في شذرات الذهب 349/1.

16- الأعسم، إنجازات الفارابيّ المنطقية، مجلة دراسات الأجيال، عدد 5، سنة 1983، ص 165.

17- حيرار جيهامي، الإشكالية اللغوية، ص 35.

18-أنظر رأي الفارابيّ في التقاء النحو بالمنطق في إحصاء العلوم، ص 54 وكتاب الحروف، ص 137 ويمكن متابعة مقالة بيومي مذكور، منطق أرسطو والنحو العربي، مجمع فؤاد الأول،1948.

19- لويس ماسينيون، نظرات في تاريخ الإصطلاحات الفلسفية العربية، ترجمة زينب الحضري، ص 06.

20- الحروف ،ص 136.

21- ابن دريد، الجمهرة، ص04، عاصر الفارابيّ ابن دريد ولعله اطلع على طريقته في الصناعة المعجمية.

22- الحروف، ص 141.

23- الحروف، ص 137.

24- الحروف، ص 134.

25- المصدر نفسه، ص 141.

26 -الحروف، ص152.

27 -المصدر نفسه، ص 141.

28- كانت هذه الطريقة متبعة عند الكندي الذي حاول توليد الألفاظ، مستعينا بمبدأ القبول في اللسان، مثل كلمات: جوهر، عرض، نوع شخص، صورة، عنصر، الأيس، رسالة الحدود والرسوم، ص 192.

29- الحروف ص 143.

30-الحروف، ص 143، ولعل هذا الحفظ سيكون أكثر جلاء حين تنوب الكتابة، كاختراع مهم في الحضارة الإنسانية، عن الذاكرة والشفاهية، وهذا ما أدركه الفارابيّ، ص 144.

31- الأزهري، تهذيب اللغة، 06/1.

32- الحروف، ص 145، ربما أتاحت لنا هذه الفكرة تفحص بعض الآراء الفنولوجية المعاصرة، كالتي نجدها عند تروبتسكوي، في كتابه مبادئ الصوتيات، الذي يبين فيه اعتماد الإنسان على منظومة لغته الأم، حتى إذا سمع آخر يتكلم بلغة أخرى فإنه، لا إرادياً يعود إلى محكمته الفنولوجية لتمييز الفنونيات، أنظر :

TROUBETZKOY. Principes de phonologie, tra ; jCantinean, p 54.67

33- الحروف، ص157.

34- الحروف، ص 157.

35- الحروف، ص 157.

36- المصدر نفسه، ص 157.

37- الخليل، العين، ص 52. وانظر، في هذا المجال، بعض الأمثلة عند علي عبد الواحد وافي، علم اللغة ص 50 وما بعدها.

38- الحروف، ص71، وهذا ما جعل المحقق يدافع بقوة عن قيمته داعياً إلى ضرورة إفراده بقراءة لسانية، في ضوء العلاقة التي تربط تطور العلوم ونمو الثروة اللسانية، ص 27، وقد ألمح إلى ذلك أيضاً عاطف العراقي، كتاب الحروف للفارابي وأهميته في مجال الفكر الفلسفي العربي، ص 01.

39- الحروف، ص 159، وانظر ابن حزم، التقريب لحد المنطق، المقدمة ومواضع متفرقة من الكتاب.

40-روزنتال، مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ترجمة أنيس فريحة، بيروت، دار الثقافة، 1961، ص 3، وانظر هذا المعنى عند التوحيدي، المقابسات، تحقيق محمد توفيق حسين الإرشاد، بغداد، 1970 ص 114.

41- حوار جيهامي، الإشكالية اللغوية، ص16.

42- اللغة والتفسير والتواصل، ص 133.

43 الفارابيّ، إحصاء العلوم، ص 62.

44- يبدو أن دراسات نوعية وافية، عن طريق الحاسوب، أجريت لجرد معجم الألفاظ الفنية عند الفارابيّ، قام بها مستشرقون بمعية معهد الدراسات والأبحاث للتعريب بالرباط، بإشراف د/الخضر غزال.

45- ا لحروف، ص 95.

46- الفارابيّ، رسالة في قوانين صناعة الشعر، ضمن فن الشعر لعبد الرحمن بدوي. ص 149، والحروف، ص 128.

47- نقله ابن أبي أصيبعة، عن الفارابيّ، في عيون الأنباء، 604/1.

48- كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق، ص 44.

49-إحصاء العلوم، ص 45.

50- إحصاء العلوم، ص 73.